٥

الطريق من طنجة إلى تونس - إقامته قاضياً

بعد أن ألممنا بهذه المعلومات عن الإطار العام الذى تمت فيه رحلة أبى عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتى الطنجى ـ المعروف بابن بطوطة - نبدأ فى السير معه خلال هذه الرحلة الطويلة مرحلةً مرحلةً، منبهين فى كل مرحلة إلى ما يستوقف النظر ويهمُّ المتطلع إلى أحوال دار الإسلام والدنيا فى أيامه من الحقائق التاريخية والظواهر الاجتماعية ، وما عسى أن يُطرف الإنسان من الغرائب والعجائب من أحوال الناس فى هذه الدنيا .

ونحن إذ نفعل هذا إنما نقوم مع ابن بطوطة بدراسة شاملة ، أو استطلاع - إذا شئت - لأحوال أمة الإسلام خلال القرن الثامن الهجرى/ الرابع عشر الميلادى ..

تلمسان وإمارة بنى زيان

خرج ابن بطوطة لرحلته يوم الخميس الثانى من شهر رجب سنة ٧٢٥هـ/ الخامس من يونيو ١٣٢٦م ، وكانت سِنُّهُ إذ ذاك اثنتين وعشرين سنة هجرية تنقص خمسة عشر يوماً. وقد ذكرنا أنه خرج فى رحلته تلك مع رفقة مسافرين لا مع رَكْب الحاج ، وكانت أُولى المراحل التى وقف عندها مدينة تلمسان ، وكانت إذ ذاك عاصمة إمارة زناتية تحكمها أسرة بنى زيَّان أو بنى عبد الواد وهى أسرة زناتية عريقة تمكنت من السيطرة على الجزء

الغربى من المغرب الأوسط من نهر المولوية إلى مدينة وهران ، واستمرت تحكمه ما بين سعود ونحوس ثلاثة قرون ونيّفاً ، من ١٢٣٦ حتى ١٥٥٠م.

وكان أميرها إذ ذاك أبا تَاشُفين عبد الرحمن بن موسى بن عثمان بن أبى يحيى يغمراسن بن زيان ، وهو أمير جرىء واسع النشاط لا يغفر التاريخ له أنه دبَّر مصرع أبيه موسى ورآه يُقتل بين يديه ، وصعد إلى العرش على هذا النحو ، واجتهد فى تبرير فعلته بالاجتهاد فى تقريب الفقهاء والعلماء وإنشاء المدارس والرُّبُط ، واستقدام أهل العلم والفن من الأندلس وإفريقية والمغرب الأقصى . وقد عُنِيَ كذلك بمسجد تلمسان الجامع ، فوسَّعه وزيَّنه ، وجعله فى الصورة التى نراه عليها اليوم ، وهذا المسجد من منشآت يوسف بن تَاشُفين .

وكانت تلمسان فى أيامه إمارة غنية بفضل ما ساد ربوعها من أمن أزهرت فى ظلاله التجارة ، وتوافد عليها من مُهاجِرة أهل الأندلس الكثيرون من التجار بأموالهم ، فتحولت تلمسان إلى مركز تجارى كبير ؛ لأن التجارة كانت تخرج من موانيها مثل وهران وأرشْقول وقلَّيلَة ، ثم تمضى إلى سِجِلْماسة ، ومن هذه الأخيرة تتفرع طرق التجارة إلى نواحى السُّوس فى جنوبىّ المغرب الأقصى ، وإلى تِـمْبُكتو العاصمة التجارية لإفريقية الإسلامية المدارية على نهر النيجر ، وإلى أدار وتاورِيرت من مراكز القوافل فى الصحراء الكبرى .

وكانت هذه القوافل تجلب إلى تلمسان قدراً عظيماً من التِّبر الذى يُجمع من مياه أنهار إفريقية المدارية ، وجلود اللمط ، وهو نوع من الوعول غليظ الجلد تُصنع منه الدروع وسُروج الخيل وقرابيس الركوب وقد تُبطَّن به السفن ، فكان الطلب عليه شديداً ، وكانت تجلب كذلك سِنّ الفيل وريش النعام والخشب الصُّلب والملح ، وكل هذا كان التجار يصدِّرونه إلى أوربا من الموانى التى ذكرناها ويستوردون بدلها بضائع كثيرة أهمها السيوف وآلة الحرب والحديد وبعض النسيج والورق وما إليها .

ولا يحدثنا ابن بطوطة بشيء من ذلك ، وإنما هو يعطينا صورة مشرقة لتلمسان كما رآها بنفسه ؛ فهي – على هذا – وثيقة تاريخية ، ثم يذكر كيف أن الظروف شاءت أن يفد على تلمسان رسولان من قِبَل أبى يحيى بن أبى ضربة بن أبى زكريا بن اللحيانى ، وهو الحادى عشر من أمراء الدولة الحفصية الذين اتخذوا لقب الخلافة ، وعُمِّرت دولتهم ثلاثة قرون ونصف القرن ، منها نصف قرن من السعود والباقى نحوس وانحدار واحتضار . وكان أبو يحيى هذا قد تولى العرش بعد محن دارت على أبيه وجده وَهَنَ منها كيان الدولة ، فلم تعد بعد ذلك قَطُّ إلى بهائها الأول أيام أميرها أبى عبد الله محمد بن أبى زكريا يحيى الملقب بالمستنصر ، صاحب النصر العظيم على لويس التاسع الملك الفرنسى الصليبى الذى حاول غزو مصر ففشل ، وهُزِمَ وأُسِرَ وسُجِنَ فى دار ابن لقمان فى المنصورة ، ثم أُخلى سبيله ، فعاد ؛ لينتقم من أهل الإسلام فى تونس، فانهزم وقُتل سنة ١٢٧٠ م .

ويهمنا من ذلك كله أن ابن بطوطة انتهز فرصة خروج رسولى أمير إفريقية – أى : تونس – الحفصى ، فخرج فى رفقتهما ، وليته ما فعل ! فقد لقى فى رفقتهما وَصَباً ؛ فقد لحق بهما بعد أن خرجا بأيام فى مدينة مِلْيانة ، وكان الوقت قيظاً فنزلت بهما الحُمَّى، فلما كانوا على مسافة قصيرة من مِلْيانة فى الطريق إلى مدينة الجزائر توفى أحدهما، وكان قاضياً ، فعادوا إلى مِلْيانة ودفنوه فيها ، ووجد ابن بطوطة الشاب أن وقته سيضيع مع هذين الشيخين ، فترك رفقتهما، والتحق برفقة جديدة ذاهبة إلى مدينة الجزائر ، وكان فى الرفقة الجديدة نفر من كرام الناس عوَّضوه عن بعض ما لقى من صاحبيه الأوَّلَين .

مدينة الجزائر

ووصلوا إلى مدينة الجزائر فلم يُطيلوا المقام فيها ؛ لأن الجزائر لم تكن مدينة بعد ، وإنما كانت فُرضة صغيرة أمامها فى البحر جزر صغيرة وصخرة بارزة فى البحر عظيمة ، وكانت تسيطر على الناحية قبيلة تسمَّى

ببنى مِزْغَنَّا ، فكانت الفُرضة تسمَّى بجزائر بنى مِزْغَنَّا ، ويرجع الفضل فى تعميرها وتمدينها إلى مهاجرة الأندلس ، وقد عُنِيَ بتلك الفرضة المرابطون، وأنشأ يوسف بن تاشفين فيها مسجداً ، ثم مَدَّنها الموحِّدون ، ثم اتخذ خير الدين باربروسا - واسمه عروج - الفُرضة والصخرة قاعدة لأعماله ضد الإسبان بعد أن استخلصها منهم خلال القرن الخامس عشر ، ومن ذلك الحين أصبحت جزائر بنى مِزْغَنَّا تسمَّى بالجزائر فحسب ، وأصبحت كذلك القاعدة الثانية للمغرب الأوسط ، وحلَّت محلَّ تاهرت وبجاية . أما القاعدة الأولى للمغرب الأوسط فكانت تلمسان ، وقد تحدثنا عنها .

بجـــايــة

وكانت فى المغرب الأوسط قاعدة كبيرة ثالثة ، وهى بجاية ، ولكنها كانت أيام زارها ابن بطوطة تابعة للحفصيين أصحاب إفريقية وقاعدتهم تونس . وكانت بجاية مدينة جليلة ومركز علم وعلماء ، وكانت قد تمدينت على أيدى الناصر بن عَلَنَّاس وهو أكبر أمراء فرع بنى حمَّاد من دولة بنى زيرى بن مناد الصنهاجيين خلفاء الفاطميين على إفريقية ، وما دان لهم من المغرب .

وعندما ترك ابن بطوطة ورفقته بجاية كانت الصحبة قد توثقت بين ابن بطوطة وفقيهٍ وقاضٍ من الرفقة ، ولكنهم عندما وصلوا إلى بجاية نزل القاضى عند قاضى البلد، ونزل الفقيه على أحد الفقهاء ، أما ابن بطوطة فلم يكن بقاضٍ ولا فقيهٍ ، فتركوه ينزل حيث يستطيع ، وهناك أصابته الحُمَّى وإن لم تنقطع الصلة بينه وبين صديق من أصدقاء القاضى وهو أبو عبد الله الزبيدى وكان من التجار .

ويحكى ابن بطوطة أن تاجراً من الرفقة توفى وترك ثلاثة آلاف دينار من الذهب، وأوصى بها لرجل من تجار الجزائر يسمَّى ابنَ حديدة ليوصِّلها إلى ورثته بتونس ، « فانتهى خبرها لأبى عبد الله محمد بن سيد الناس الحاجب أمير بجاية للحفصيين ، فانتزعها من يده ، وهذا أول ما شهدته من ظلم

عمال الموحِّدين » (ص ١٢) ، والمراد بالموحِّدين هنا الحفصيون ، لأن أبا محمد عبد الواحد بن أبى محمد بن أبى حفص عمر الهنتاتى مؤسس الدولة الحفصية كان من كبار الموحِّدين ، وكانت الدولة الحفصية فى أول أمرها فرعاً من دولة الموحِّدين .

قلنا إن ابن بطوطة أصابته الحُمَّى ، فنصحه صاحبُه أبو عبد الله الزبيدى بأن يستريح فى بجاية حتى يبرأ ، فَأَبَى وركب الدابة على مرضٍ وقال : «إن قضى الله عز وجل الموت فتكون وفاتى على الطريق وأنا قاصد أرض الحجاز » ومن المعروف أن الناس كانوا يرون أن مَنْ مات فى طريق الحج عُدَّ شهيداً ، وقد عُنِيَ به الزبيدى وأعاره دابة وخباء ، وقال ابن بطوطة : «وكان ذلك أول ما ظهر لى من الألطاف الإلهية فى تلك الوجهة الحجازية».

وفى قسنطينة لقى ابن بطوطة مكرمة جديدة من مكارم أهل الجود تؤكد ما قلناه من ترابط الأمة الإسلامية وتعاونها على الخير ورعايتها لابن السبيل . وكان المطر قد هطل على الرفقة وهم نائمون فى الأخبية ، فتلوثت ثياب ابن بطوطة ، قال : « فنظر حاكم المدينة - وهو من الشرفاء الفضلاء - إلى ثيابى وقد لوثها المطر ، فأمر بغسلها فى داره ، وكان الإحرام منها خَلَقاً ، فبعث مكانه إحراماً بعلبكيًّا ، وصَرَّ فى أحد طرفيه دينارين من الذهب ، فكان ذلك أول ما فُتح عليَّ به فى وجهتى » (ص ١٢).

وأصابت ابنَ بطوطة الحُمَّى مرة أخرى وهو فى الطريق من بونة إلى تونس ، فكان يشد نفسه بعمامته فوق السرج خوفَ السقوط بسبب الضعف ، « ولا يمكننى النزول من الخوف ». وعندما وصلوا إلى تونس خرج الناس للقاء صاحبيه أبى عبد الله الزبيدى وأبى عبد الله النفزاوى. وتُرك ابن بطوطة وحيداً لعدم معرفته أحداً من الناس ، فعزَّت عليه نفسه وبكى ، واشتد بكاؤه ، فَرَقَّ له فؤاد بعض الناس ، فأقبلوا عليه يؤنسونه ، فدخل تونس ونزل فيها بمدرسة الكتبيين.

وقد رأى ابن بطوطة سلطان تونس إذ ذاك أبا يحيى أبا بكر وهو يشهد صلاة عيد الفطر سنة ٧٢٥هـ / العاشر من سبتمبر ١٣٢٤م ، ولم يطل مقامه بتونس ، إذ كان لابد له من الخروج مع ركب الحاج فأُقيم أميراً للحج رجلٌ يسمَّى أبا يعقوب السوسى ، وكان أكثر الحجاج من المصامدة؛ أى : من سكان جنوبىّ المغرب الأقصى ، « فقدَّمونى قاضياً بينهم ؛ أى : قاضى طريق كما يقال ، ومن ذلك الحين أصبح ابن بطوطة الشاب قاضياً وحمل لقب القاضى ، وأصبح من أهل المراتب ينزل على القضاة والفقهاء.

* * *